مجلة دراسات موصلية

مجلة دورية علمية محكمة، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

تاريخ استلام البحث: ٢١/ ١١/ ٢٠٢١ تاريخ قبول النشر: ١١/ ١ /٢٠٢٢

الصراع بين نور الدين زنكي والملك الصليبي عموري الأول للسيطرة على مصر

في روايات المصادر العربية والصليبية المعاصرة

The Struggle over Egypt Between Nur Al-Din and The Crusading King Amalric I

According to the Arabic and Crusading Contemporary Sources

محمد عبيش سباك

طالب دكتوراه

جامعة الموصل/ كلية الاداب/

قسم التاريخ

Muahmmad Abish Sbak
College of Arts / Dept. of History

ا.د.ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

جامعة الموصل/ كلية الاداب/

قسم التاريخ

الاختصاص الدقيق: الاستشراق

Prof. Dr. Nassser Abd Alrazak Al Malla Jassem
Mosul University/ College of Arts- Dept. of History
Specialization: Orientalism

ISSN. 1815-8854

المخلص:

دخلت حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين مرحلة مفصلية في ستينيات القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، عندما اصبح الملك نور الدين محمود بن زنكي حاكم الشام وعموري الاول ملك مملكة القدس الصليبية في صراع عنيف للسيطرة على مصر الفاطمية التي كانت تعيش احتضارها. وقد ارسل نور الدين بين عامي ٥٥٩هـ/١١٦٤م و٥٦٤هـ/١١٦٩ ثلاث حملات الى مصر انتهت بتأمينها من الخطر الصليبي، وتاسيس الحكم النوري فيها.

يهدف هذا البحث لتحليل ومقارنة الروايات التاريخية المتعلقة بهذا الصراع بين التصورات العربية الاسلامية وتلك الصليبية، فيكشف عن اوجه التشابه والاختلاف بين كلا الروايتين، لاسيما وان بعض رواتها كانوا شهود عيان على الاحداث او نقلوا عن شهود عيان عليها، كما هو الحال مع ابن الاثير في كتابيه الكامل والباهر وعماد الدين الاصفهاني في البرق، وابن ابي طي من الجانب الاسلامي ووليم الصوري عن الجانب الصليبي.

الكلمات المفتاحية: مصر ، الصليبيون ، شركوه ، الفاطميون

Abstract

The Jihad movement against the crusaders witnessed a turning point at the 560s A.H. when Nur Al-Din and Amalric I struggled for mastery over Egypt. Both leaders knew that Egypt is the key of the victory in their fatal conflict. Nur Al-Din send three campaigns to forestall Amalric plans to occupy Egypt. At the end, Shirkuh Nur Al-din's leader succeeded to secure the situation for Muslims.

The Aim of this research is to give an analytical and comparative study for both the Islamic and Crusading narratives of the above-mentioned showdown; Ibn Al-athir, Ibn Abi Tai and Al-Asfahai are the main historians that convey the Islamic point of view and at the opposite lie William of Tyre as the main representative of the crusading perspective of events.

Key words: Egypt, Crusaders, Shirkuh, Fatimids.

المقدمة

كان نور الدين محمود بن زنكي حاكم بلاد الشام قد كرس حياته لمجابة الصليبيين والسعي لتحرير الاراضي المقدسة وبقية بلاد الشام من احتلالهم. وكان الطرفان قد ادركا انهما قد وصلا حالة من توازن القوى، وان كل طرف عاجز بامكانياته التي في يديه ان يقضي على الطرف الاخر. وقد ادرك الطرفان ايضا ان مصر هي التي سترجح كفة هذا الطرف او ذاك، فالامكانيات الاقتصادية الضخمة لهذا البلد ستمكن الطرف الذي يستولي عليه من التفوق على الطرف

ISSN. 1815-8854

الاخر وبالتالي دحره. وبات ظاهرا للعيان ان الدولة الفاطمية على حافة الانهيار. وقد ادرك نور الدين حقيقة الاطماع الصليبية في مصر، لاسيما بعد سقوط عسقلان بايدي الصليبيين عام ٥٥١هـ/١١٥٦م. وانفتاح الطريق امامهم صوب القاهرة. وقد قام الملك الصليبي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس في نهاية سنة (٥٥٧هـ/١١٦١م) بحملة على مصر، وأجبر من خلالها حكام مصر على دفع ضريبة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار. وعندما توقفوا عن دفعها عاد الصليبيون خرج عموري الأول الذي حل محل أخيه بلدوين الثالث في حكم المملكة الصليبية على مصر في العام التالي (رنسيمان ، ١٩٩٧، ٢ /٥٩٢ ؛ سيتون ، ٢٠٠٤ ،٢٠٦)، ليبدا صراع بين نور الدين وعموري استمر حتى عام ٥٦٤هـ/١١٥٩م عندما نجح نور الدين في حسم النزاع لصالحه.

وفي هذا البحث سوف يصار الى تناول ذلك الصراع المحتدم بين الطرفين الاسلامي والصليبي، كما عرضته المصادر العربية والصليبية المعاصرة، بهدف تحليل كلا المنظورين الاسلامي والصليبي للصراع، لاسيما وان هذه الصراع كان يجري على مرأى من مؤرخين معاصرين هما من الطرف الاسلامي عماد الدين الاصفهاني الذي كان رئيسا لديوان الانشاء لدى لنور الدين ووليم الصوري مستشار عموري وصديقه المقرب من الطرف الصليبي. فالهدف ليس اعادة عرض للحوادث وانما تحليل الطريقة التي صور بها كل طرف روايته للاحداث بهدف البحث عن العناصر المشتركة والمختلفة في طبيعة فهم وتصوير المسلمين والصليبيين لتلك المواجهة التاريخية التي كان فيها مصير الشرق الاسلامي معلقا وعلى حافة السقوط بايدي القوى الغربية.

بدأت حملة عموري في ٥٥٨ هـ/١١٦٣م وقد أفاض وليم الصوري بذكر تفاصيل الحملة ، وتحركاتها في مصر ، فذكر أن الملك عموري سار نحوها : " يقود طائفةً كبيرةً من الفرسان ، وجيشاً كثيفاً فلما وصل إلى صحراء مصر تصدى له الوزير الفاطمي ضرغام (الصوري، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٠-٢٢).، وانه (أي ضرغام) كان على رأس جماعة لا تحصى عدداً غير أنه لم يكن قادراً على الصمود أمام هجوم الصليبيين ، وأن الأمر انتهى إلى وقوع معظم جيشه ، ما بين أسير وقتيلٍ ، مما أرغمه على الارتداد إلى مدينة بلبيس(مدينة بينها وبين الفسطاط في مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ٤٧٩) في حالة من الهلع ، أجبرت الفاطميين على أن يقدموا على كسر السدود المائية التي كان يحجزون مياه الفيضان فيها، حتى يحين الوقت المناسب فيعمدون إلى تفجيرها، وهي في أقصى ارتفاعها ، فتغرق ما حولها ، وكان المصريون يطمعون أن يطمئنوا إلى سلامتهم بسبب هذه المياه التي تكتنفهم في كل مكان(الصوري ، ١٩٩٢، ج٤ ، ص ٢٥-٢٦).، ومع أن نتيجة المعركة في نهاياتها لصالح الفاطميين والوزير ضرغام الذي أجبر الملك عموري الأول على التراجع نحو بلاد الشام ، فقد اعتبره الصوري لدى عودته إلى مملكته قاهراً لأعدائه ظافراً بالمجد بعد أن تكللت حملته بالنجاح(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٦). على الرغم من أن ذلك لا يتفق مع الواقع التاريخي ، كما أنه بالغ في تقديره لقوة الجيش الصليبي الذي استطاع على حد تعبيره أن يهزم جيشاً لا يحصى عدداً ، مع ان الجيش الفاطمي لم يكن كذلك (الختاتنة، ٢٠٠٢م ، ص ١٦٦).

ISSN. 1815-8854

تتفق رواية الصوري هذه في جوهرها مع ما جاء في المصادر العربية ممثلةً بعمارة اليمنيت ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وابن ظافر الأزدي(ت ٦١٣هـ/١٢١٦) والمقريزي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) ، إلا أنها أعطت معلومات أكثر تفصيلاً عن خط السير الذي سلكه الصليبيون عند دخولهم مصر (المقريزي ، ١٩٩٧ ، ج١ ، ص ١٣٧ ، ص ٤٢٨)، كما أنها ذكرت أن الذي تصدى للملك عموري الأول هو أخ للأمير ضرغام ، اسمه ناصر المسلمين همام بتوجيه من أخيه، فضلا عن اعطائها معلومات عن دور قبيلة بني كنانة في مواجهة عموري. (عمارة اليمني،١٩٩١ ، ص ٧ ؛ ابن ظافر الأزدي ، ١٩٧٢ ، ص ١٦٠ ؛ المقريزي ، ١٩٩٦ ، ج٣ ، ص ٢٦٢). غير أنها لم تشير إلى خطة ضرغام في كسره للسدود المائية ، باستثناء المقريزي الذي ذكر الخطة إضافةً إلى أنه اعتبر على غرار ما فعل الصوري بأن " الفرنج منتصرين وأنهم رجعوا إلى بلادهم ، بمن أسروه من المسلمين ".(المقريزي ، ١٩٩٦، ج٣ ، ص ٢٦٢).

لم تحقق حملة الملك عموري الأول على مصر أهدافها بضمن ذلك إجبار مصر على دفع الضريبة التي أشار الصوري إلا أنها كانت السبب المباشر للحملة ، ولكنها استطاعت أن تشعر الفاطميين بقوتها وقدرتها على التأثير ، ولقد كان توجه عموري هذا نحو مصر مجازفةً سياسية خطيرة ، كان من نتيجتها أن تنبه نور الدين الى خطورة الموقف، فبادر بتوجيه ثلاث حملات عسكرية بين سنتي ٥٥٩هـ-٥٦٤هـ/١١٦٤-. ١١٦٨ وانتهت بمقتل الوزير الفاطمي شاور وتولي قائد جيش الحملة اسد الدين شيركوه، ثم تولي ابن اخيه صلاح الدين محله بعد وفاته في غضون اكثر قليلا من شهرين. ثم انتهى الامر بازالة الدولة الفاطمية عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) وبروز دولة موحدة تمتد من دجلة في الجزيرة الفراتية وحتى نهر النيل ومصر ، ولتفرض طوقاً محكماً على الصليبيين (الختاتنة ،٢٠٠٢ ، ص ١٦٧)

حملة نور الدين الأولى على مصر ٥٥٩هـ/١١٦٤م

لم تلبث الظروف في مصر أن هيأت لنور الدين محمود فرصة الدخول إليها ، وذلك عندما جاء الوزير شاور (ابن خلكان ،١٩٨١ ، ج٢ ، ص ٤٣٩-٤٤٠). مستنجداً به في سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م) (ابن منقذ، د.ت، ص ٣٦ ؛ ابن الأثير، ١٩٦٣ ص ١٢٠ ؛ ابن شداد ،١٩٩٤ ، ص ٧٥.) على أثر الصراع الذي دار بينه وبين الوزير ضرغام ، وتمكن الأخير من الانتصار عليه فقدم شاور إلى نور الدين يطلب مساعدته ، مقابل أن يدفع ثلث خراج مصر سنوياً إلى نور الدين ، كما يتحمل تكاليف الحملة منذ خروجها من بلاد الشام إلى حين عودتها من حيث خرجت حسب ما تذكر المصادر العربية (ابن الأثير ، ١٩٩٧ ، ج٩ ، ص ٣٠٥ ؛ أبو شامة ،١٩٩٧م ، ج١ ، ص ٤٠٣-٤٠٦ ؛ المقريزي ، ١٩٩٦ ، ج٣ ، ص ٢٦٤).

وذكر وليم الصوري بأن الملك عموري الأول استقبل على أثر ذلك رسلاً بعث بهم الوزير الفاطمي أبو الأشبال(ويقصد به الوزير ضرغام)، ومعهم كتاب ، انفرد الصوري بذكر نصه ، وجاء فيه أنه : (أي ضرغام) ألح في التماس الغوث لمجابهة العدو الذي أصبح الآن يهدده بالهجوم (الصوري ، ١٩٩٢ ، ، ج٤ ، ص ٢٧). ويعني بذلك خصمه الوزير شاور السعدي الذي كان قد التجأ آنذاك إلى نور الدين ، وأعّد جيشاً لمساعدته وإعادته إلى الوزارة في مصر. (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٢٠-١٢١ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٧)، كما جاء في كتاب الوزير ضرغام أنه مستعد

ISSN. 1815-8854

أن يدفع جزية للملك عموري الأول : " تزيد على ما كان متفقاً عليه من قبل ، وبالمقدار الذي يقرره ، ولعقد محالفة لا يشجبها بأي حال من الأحوال ، واستعداده بإرسال الرهائن إليه دليل على صدق خضوعه له "(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٧).

قام نور الدين بإرسال حملة إلى مصر ، أنطيت قيادتها إلى أسد الدين شيركوه من أجل تنفيذ الاتفاق بينه وبين الوزير شاور(ابن الأثير ، ١٩٩٧ ج٩ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج١ ، ص ٤٠٦-٤٠٧ ؛ الملا جاسم ، ١٩٩٢ ، ص ٦٦). ويبدو أن الهدف من ارسال هذه الحملة هو الاطلاع على أحوال البلاد والوقوف على مجريات الأمور فيها ، ويتضح ذلك من خلال ما قال نور الدين إلى قائده شيركوه عند تجهيزه إليها قائلاً : " قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وحفظاً للبلاد وتطلعاً الى أحوالها "(ابن شداد ، ١٩٩٤ ، ص ٧٥ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج١ ، ص ٤٠٧). وعلى أية حال سلكت قوات أسد الدين شيركوه الطريق الشرقي من الكرك والشوبك، ومن ثم الشخوص إلى القاهرة (ابن واصل، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٣٨؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧م ، ص ١٦٥). وهناك عند أسوار القاهرة حدثت المعركة الفاصلة فحلت الهزيمة بقوات ضرغام وقتله ، وتم ارجاع شاور إلى وزارته ، وبقى شيركوه منتظراً خارج اسوار القاهرة بغية اتمام الاتفاق المعقود بينه وبين شاور ، غير أن الأخير نقض الاتفاق وطلب من أسد الدين شيركوه مغادرة مصر ، وعلى أثر ذلك توجه شيركوه إلى بلبيس فتسلمها وصار يحكم الأقاليم الشرقية من البلاد حسب ما ذكره كل من ابن الأثير وابن العديم(ابن الاثير، ١٩٩٧ج٩ ، ص ٣٠٦ ؛ ابن العديم ١٩٩٦ ، ص ٣٤٥). وذكر وليم الصوري بأن شاور نقض الاتفاق بعد أن خاف من طموحات الجيش الزنكي وقائده أسد الدين شيركوه ، الذي أظهر على حد تعبير الصوري:

"انه عازم على ... اخضاع بقية البلاد لسلطانه ، رغم وجود السلطان (يقصد الوزير شاور) والخليفة الفاطمي ... لذا فقد انقلب عليه ، وقام بإرسال رسله إلى الملك عموري الأول ، يحملون رسائل الموادعة من سيدهم ، الذي زودهم بصلاحيات لينفذوها في الحال ، وعلى حد تعبير الصوري ، بالقول والعمل ، شروط الاتفاق المبرم من قبل بين ... الملك (عموري) والسلطان (أي الوزير السابق ضرغام) ، وأن يقدموا إذا دعت الضرورة ، تنازلات أكثر مما سبق. (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٨-٢٩). لم يشير الصوري إلى شروط الاتفاق وإلى ما قدمه الوفد من تنازلات ، غير أن المصادر العربية أشارت إلى ذلك بأن يدفع شاور للملك (عموري) مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة ، يرحلها إلى الديار المصرية " فخرج مري (المقصود الملك عموري) من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة فقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار (أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٩٠ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ج٣ ، ص ٢٧٦-٢٧٧). جاء هذا العرض من الوزير شاور ليضع الملك عموري أمام فرصة جديدة لتحقيق طموحاته في مصر ، لذا فانه ما كان الاتفاق المشار إليه يبرم ، ويؤكد بين الطرفين ، حتى أسرعت القوات الصليبية بقيادة ملكها عموري إلى مصر ، فالتقى بقوات شاور شرقي القاهرة ، وتعاون الاثنان ضد القوات الزنكية بقيادة شيركوه الذي اعتصم ببلبيس فضربوا عليه الحصار ثلاثة أشهر دون تحقيق أي مكسب (ابن الاثير، ١٩٩٧ج٩ ، ص ٣٠٦ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٨-٢٩). وبعد ذلك تم الاتفاق بين أسد الدين شيركوه والملك عموري ، على أن يخرج الطرفان

ISSN. 1815-8854

الجيش الزنكي والصليبي من مصر (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٢٠٧ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٢١ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٤١٢ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٢٩)

أن من الغريب ألا يستغل الملك عموري الأول الظرف الذي اتيح له ليحقق مكانة أكبر له في مصر ، ومن بدل هذا عقد اتفاق مع القوات الزنكية المحاصرة بخروج الطرفين الزنكي والصليبي من مصر ، إن التفسير الوحيد لذلك هو الموقف الحرج الذي كانت تواجهه المملكة والامارتان الصليبيتان المتبق ، طرابلس وانطاكية ، وفي ذاك الوقت الذي كان عموري يحاصر فيه قوات أسد الدين شيركوه في بلبيس ، فقد سيطر نور الدين محمود على حصن حارم(حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٠٥) الحيوي ، وقام بأسر أمير طرابلس ريموند الثالث وأمير انطاكية بوهيمند الثالث والحاكم البيزنطي قسطنطين كولمان وغيرهم ، وهو الأمر الذي جعل عموري الأول يعجل بإقامة الصلح مع أسد الدين شيركوه ، في مصر ، والعودة بشكل سريع إلى المملكة لمعالجة الموقف. (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٠٧-٣٠٨ ؛ رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٥-٥٩٦ ؛ الختاتنة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٧٢).

وإذا كان الصوري لم يربط بين هذه المتغيرات في بلاد الشام ، وبين قبول الملك عموري الصلح مع شيركوه على أساس خروج الطرفين الزنكي والصليبي من مصر فحسب ، فان ابن الأثير أشار إلى ذلك قائلا : " فبينما هم كذلك (أي خلال محاصرة الصليبيين لشيركوه في بلبيس) إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم ، وملك نور الدين حارم ... فحينئذ سقط في أيديهم ، وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها ، فراسلوا أسد الدين شيركوه في الصلح والعودة إلى الشام ، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ، فأجابهم إلى ذلك ، لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ". (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٠٧ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٢٢).

حملة نور الدين الثانية على مصر ٥٦٢هـ/١١٦٦م:

بعد الكارثة التي ألمت بالقوات الصليبية على يد نور الدين في موقعة حارم ٥٥٩هـ/١١٦٤م ، توجه الملك عموري إلى طرابلس على أثر عودته من حملته الفاشلة على مصر ، ليعلن وصايته عليها (رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٨). ، ثم توجه إلى انطاكية التي خسرت جيشها وأميرها بوهيمند الثالث في الموقعة المذكورة ، وحال وصوله طلب التفاوض مع نور الدين فكانت نتيجة المفاوضات اطلاق سراح بوهيمند الثالث حاكم انطاكية ، بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال حسب ما ذكره الصوري، (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٣٦). غير أن وجود عموري الأول في انطاكيا قد ازعج الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين(حكم ١١٤٣-١١٨٠م)الذي ارسل يطلب منه مغادرتها (رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٨)، مما أدى إلى قيام الملك عموري بإرسال وفد إلى القسطنطينية يطلب من الامبراطور مساعدته للاستيلاء على مصر (ينظر: رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٨؛ مؤنس، ١٩٩٥، ص ٢٩٧). وذكر رنسيمان أن الامبراطور لم يرد على سفارة الملك الصليبي عموري (رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٩٩).

ISSN. 1815-8854

توالت الأنباء لدى الصليبيين بأن نور الدين بعث قائده شيركوه وعدد من الأمراء من بينهم ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي بحملة على مصر سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٧ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٠ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٣٩). وذلك لأن نور الدين كانت لديه رغبة كبيرة في ضم مصر إلى الوحدة الاسلامية ، ولاسيما بعد اطلاعه بشكل وافي على أحوال البلاد من جهة ، وما أبداه شاور في حملته الأولى من ظلم وغدر من جهة أخرى (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢ ؛ الزوبعي ، ٢٠٠٣) ، ص ٢٣٤.

خرج شيركوه على رأس قوة ضخمة من القوات الزنكية ، للإغارة على مصر مرةً أخرى(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٣٩). ، وما أن علم شاور بتقدم القوات الزنكية إليه حتى أسرع في طلب النجدة من الملك الصليبي عموري الأول ، وتعهد بان يدفع له المال على ما كان يدفع له بالحملة الأولى ، مقابل النجدة ضد شيركوه حسب قول المقريزي نقلاً عن المؤرخ المعاصر ابن أبي طيء (بواعنة، ٢٠٠٩م ، مج٣ ، ص ٤١-٤٤)، بقوله : " وأن المقرر من المال يحمل إليه على ما كان يحمل في السنة الماضية ، فسار مري (أي عموري) بعساكره وقد طمع في البلاد على الساحل (المقريزي ، ١٩٩٧ ، ج٣ ، ص ٢٨٣). ويبدو من خلال هذا النص بأن الطمع حمل عموري على الخروج في تملك الديار المصرية ، وكذلك خوفه من أن تملك القوات الزنكية مصر وهذا ما ذكره ابن الأثير بقوله :

" وعلموا [أي الصليبيين] أن ملكها نور الدين واستضافها إلى البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وأن يستأصلهم وتصير بلادهم وسط بلاده " (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٧ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٤٩). ومهما يكن من أمر فان القوات الزنكية تمكنت من عبور النيل إلى الضفة الغربية ، قبل وصول النجدة الصليبية التي التقت بعد وصولها مع قوات شاور ، فسار الاثنان نحو القوات الزنكية (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢ ؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧ ، ص ١٦٩). يبدو أن شيركوه شعر بحراجة موقفه في مقامه هذا ، لذلك انحدر جنوباً إلى الصعيد ، وعند البابين : وهي قرية كانت تقع جنوب مدينة المينا المصرية ، وسميت بالبابين لشدة ضيق النهر بين المرتفعات الموجودة على الجانبين ، ويبعد المكان عشر أميال عن المينا. (ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٤٨ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٦٣). دارت رحى معركة ضارية انتصرت فيه القوات الزنكية انتصاراً كبيراً في هذه الوقعة التي عرفت بموقعة البابين (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٧-٣٢٨ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٥٠ ، الملا جاسم، ١٩٩٢ ص ٧٠-٧١)، إذ لقى أغلب الفرسان الصليبيون مصرعهم ، ووقع في الأسر الكثير من قواتهم ، وكان بين الأسر هيو صاحب قيسارية ، فتراجع الملك عموري وشاور بمن تبقى من قواتهم إلى القاهرة (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٨ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٥٠-١٥١).

ويشير المؤرخ ابن الأثير إلى هذه المعركة بشيء من التفصيل بقوله : " أن شيركوه قسم جيشه على قسمين ، جعل القسم الأول تحت زعامته ، بينما جعل القسم الثاني تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي وهو القلب : " وقال له ولمن معه أن الفرنج والمصريين يظنون انني في القلب فهم يجعلون جمرتهم بإزئه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فأرجعوا في أعقابهم ... فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره

ISSN. 1815-8854

أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم الفرنج ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل ، فهزمهم ووضع السيف فيهم ، فأثخن وأكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنج من المنهزمين " رأوا عسكرهم مهزوماً ، والأرض قفراً فانهزموا أيضاً" (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٨).وعلقت مصادرنا العربية عن تلك الموقعة إذ ذكرت :

" وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل " (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٨ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣).

مع أن المصادر العربية تجمع على خسارة الصليبيين في معركة البابين (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢-١٣٣ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧، ج١ ، ص ١٥٠-١٥١ ؛ الملا جاسم ، ١٩٩٢ ، ص ٧١). ، فإن وليم الصوري يرى أنها لم تكن معركة فاصلة ، فقد كان النصر تارةً في جانب القوات الزنكية ، وتارةً أخرى في جانب الصليبيين(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٦٣-٦٤).

مع ما حققته القوات الزنكية من نصر في معركة البابين لم يقم شيركوه بملاحقة الجيش الصليبي ، بل اتجه مع ابن أخيه صلاح الدين إلى الإسكندرية التي رحبت بهما (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٣ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣). ، ولم يلبث أن ترك شيركوه فيها صلاح الدين ، وتوجه هو نحو صعيد مصر لجمع الخراج (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٥١).، أما شاور وحلفاءه الفرنج توجهوا إلى الإسكندرية بعد استعادة تنظيم قواتهم لمحاصرة القوات الزنكية فيها (ابن الاثير ، ج٩ ، ص ٣٢٩). وما أن اتجه شيركوه من الإسكندرية إلى صعيد مصر ، وإذا بالملك عموري يغادر مع مجموعة من عساكره لملاحقة شيركوه الذي كان متجهاً كما أشرنا إليه آنفاً إلى صعيد مصر ، إلا أنه كما يبدو غير خطته هذه وعاد باتجاه الإسكندرية ليشدد من الحصار المضروب عليها (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٦٦-٧٢).

في أعقاب تشديد عموري وحليفه شاور الحصار على القوات الزنكية في الإسكندرية (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٩ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٣ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣-١٤ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٧١-٧٢. ، أرسل صلاح الدين في طلب عمه شيركوه الذي عاد مسرعاً بعد أن انضم إليه عددٌ كبيرٌ من المتطوعين من أبناء المنطقة (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٣ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٤ ؛ الملا جاسم ، ١٩٩٢ ، ص ٧٢-٧٣) ، وبعد استنجاد صلاح الدين بعمه شيركوه ، يبدو أن الأخير بدأ يسعى ، وفقا لوليم الصوري لإقامة صلح فاستقدم (هيو صاحب قيسارية) الذي كان أسيراً عنده ، وطلب إليه أن يكون وسيطاً بينه وبين الملك عموري وخاطبه بذلك قائلاً ، حسب رواية الصوري : " إنك أمير جليل القدر ... إني لأعترف لك بصراحةً أنني طموح للمجد شأني في ذلك شأن الخلق ... وقد اجتذبني ثراء مملكة مصر ... وأن تكون هذه المملكة (أي مصر) لي في يوم من الأيام ، اعتماداً على طبيعة أهلها الذين لا حول لهم ولا قوة ، لذلك جئت إلى مصر ... إنك كما أقول رجل عالي الهمة ... وقريب إلى قلب الملك ، كما أنك نافذة الكلمة عنده مسموعة ، فهل لك أن تكون وسيطاً في الصلح بيني وبينه ...

ISSN. 1815-8854

فأمض إلى الملك عموري وقل له : إننا نضيع وقتنا ... وهناك أمور هامة تستلزم وجودنا في ديارنا ، كما أن تواجد الملك في مملكته من الزم الأمور ، ولكنه يبعثر جهوده هنا من أجل غيره ... فدعه يسترد أسراه الذين هم في يدي الآن ، وأطلب إليه أن يرفع الحصار ويرد علي أسراي الذين في يده ، كذلك الذين سدت عليهم المنافذ في مدينة الإسكندرية ، واني لمستعد من جهتي للخروج حالما استلم منه بعدم إزعاج عسكره لنا في الطريق "(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٧٤-٧٥).

ويشير الصوري إلى أن هيو الأبليني الذي كان متردداً في تنفيذ هذه المهمة ، وأخبره أنه أوكلها إلى أسير آخر لدى شيركوه وهو (أرنوف) الذي قبل المهمة ، واتصل بالملك عموري وأعلمه بمضمون مقترحات شيركوه ، فقام الملك بعقد مجلس حضره باروناته والوزير شاور، واستمع الجميع إلى المقترحات المشار إليها ، والتي عرضها أرنوف عليهم ، فقبلوا بها لأنهم وجود شروطها. وكما ينص الصوري : " لا تتناقض مع الاتفاق المبرم بين الملك، (عموري) والخليفة (الفاطمي) ، بل أنها تضمنت الوفاء بها وفاءً صحيحاً " (الصوري، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٧٥-٧٦)

بينما يقدم ابن الأثير رواية مخالفة لما ذكر الصوري ، وحيث تنص على أن الذي سعى إلى الصلح هم الصليبيون وحلفاؤهم الفاطميون ، لأن شروط الصلح من وجهة نظره نصت على أن لا يقيم الفرنج في مصر ، وأن لا يتسلموا فيها قرية واحدة ، وأن تعاد الإسكندرية إلى الفاطميين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٩ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٤). أما شروط الاتفاق بين الطرفين حسب ما ذكر الصوري ، بأن تضع مدينة الإسكندرية في يد الملك عموري الأول ، ويتم تبادل الأسرى بين الطرفين ، وكذلك السماح للجيش الزنكي الموجود في الإسكندرية وعلى رأسه صلاح الدين الأيوبي بالخروج بأمان ، واخيراً أن تغادر القوات الزنكية مصر (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٧٦-٧٧). ويلاحظ أن الصوري لم يشر إلى أن الاتفاق اشترط كذلك خروج الفرنج الصليبيين من مصر ، كما أنه عبر في غبطته بسماح الفاطميين برفع علم المملكة ، على برج الإسكندرية " خفاقاً رمزاً ... للنصر الذي حقق الملك عموري(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ٧٧) ، مما يوحي بأن ثمة بنوداً سرية بالفرنجة الصليبيين والفاطميين ، وهو ما تؤكده رواية ابن الأثير الذي ذكر أن الفاطميين منحوا الفرنج في أن يكون لهم شحنة (الشحنة : من الشحنكية وهي كلمة تركية الأصل ، والشحنة هم الجماعة التي يقيمها الملك لضبط البلد ، أو الرباط من الخيل. (ينظر : الذهبي ، ١٩٩٣، ج٣٢ ، ص٢٣)، في القاهرة ، وأن تكون ابوابها ومفاتيحها بيد فرسان من الصليبيين يحرسونها ويدافعون عنها امام أية هجمات زنكية مستقبلاً ، إضافةً إلى تخصيص مئة ألف دينار تدفع سنوياً إلى المملكة (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٢٩).

حملة نور الدين الثالثة على مصر ٥٦٤هـ/١١٦٩م

بالرغم من الاتفاق المخزي الذي أبرم بين شاور والملك عموري ، إلا أنه طمع بأكثر من ذلك حيث جهز جيشاً كبيراً في سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) ، لغزو مصر ، إذ توجه عموري بقسم من قواته مظهراً العزم على مهاجمة حمص، إيهاماً المسلمين عن هدفه الأساسي ، حيث كانت أغلب قواته تستعد للسير إلى مصر (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٧ ؛

ISSN. 1815-8854

ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٥٦ ؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧، ص ١٧٥). وذكر الصوري أن المبرر الذي دفع عموري للخروج بحملة على مصر وأن ينقض الاتفاق مع شاور ، بأن إشاعة سرت في المملكة ، أن الوزير الفاطمي شاور دأب على أن يبعث في السر بالكتب إلى نور متلمساً منه مد يد المساعدة إليه ، مدعياً أن كل مشاركة من جانبه في عقد أي اتفاق سلام مع المملكة إنما تمت على كره منه ، وعلى غير رضائه ، وأنه راغب في الانسحاب من الاتفاق ، الذي كان قد أبرمه مع الملك (عموري) وأنه سوف " يشجب هذا الاتفاق ، ويستقل عن الملك نهائياً ، إن تأكد تماماً من مساعدة نور الدين له ".(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٠٢). أما المصادر العربية فإنها تؤكد أن شاور طلب مساعدة الزنكيين ، وترتبط ذلك بعدة أسباب وهي :-

١- قيام الملك عموري بابتزاز الوزير شاور ، رغبةً في الحصول على مزيد من الأموال ، ناكثاً بذلك شروط الاتفاق.

٢- كره الوزير شاور لتصرفات الحامية الصليبية المقيمة في القاهرة بموجب اتفاقية سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) مع الصليبيين ، والتي تركت آثار سيئة لدى المصريين. (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٧ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٤٦-٤٧ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧، ج٣ ، ص ٢٩٢-٢٩٣) كما أن الطمع هو الذي قاد عموري من أجل الاستيلاء على مصر متنكراً لاتفاقياته مع الفاطميين ووزيرهم شاور ، على أمل الاستيلاء عليها بعد أن أدرك الضعف الشديد التي هي عليه ، بل إن الطمع قد بلغ به مبلغ أن استدعى وزيره ، كما يقول المقريزي نقلاً عن المؤرخ المعاصر ابن أبي طيء : " وأمره باقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها عليهم بعدما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية ، واستنجد عسكراً قوي به جنده (المقريزي ، ١٩٩٧ ، ج٣ ، ص ٢٩١).

أما ابن الأثير فيورد حديثاً على لسان عموري رفضه الاستيلاء على مصر والاكتفاء بالقطائع السنوية الباهضة التي يجنيها منها(ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٧). وأنه عرض على مبعوث شاور أن يقفل من غزوه لمصر في مقابل حصوله على مبلغ ألفي دينار ، : " فقال له المبعوث أعود إلى شاور بهذا الخبر وارجع إليك بالجواب ، كما طلب منه بأن لا يغادروا مكانهم ، فقال عموري بل ننزل على بلبيس حتى تعود ... وعندما قدم عموري إلى بلبيس أرسل إلى طيء بن شاور وكان بها ، فقال له أين ننزل ، فرد على رسوله : بأن يقل له ينزل على أسنة الرماح " ، فغضب من هذا وجعله سبباً لنقض ما قرره مع مبعوث شاور ، وهجم على بلبيس واحتلها فقتل وسبى أهلها ، ويتجلى طمعه بوضوح في قوله رداً على شاور : " أن ابنك (طي بن شاور) قال أيحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة (المقريزي ، ١٩٩٧ ، ج٣ ، ص ٢٩٢-٢٩٣.).

وبالمقابل فان المصادر الصليبية وفي مقدمتها وليم الصوري قد ابرزت هذه الناحية في عموري الأول (املريك) ولكن وفق منظور مختلف ، إذ ألقوا على طمعه باللائمة على عدم احتلال مصر، بما يماثل ما قاله ابن الأثير والمقريزي في النصوص السابقة ، فهو يعنى أن جيلبرت رئيس طائفة فرسان الأسبتارية الذي بدد أموال الطائفة وأغرقته الديون ، فقد حث عموري على غزو مصر ، لاسيما بعد أن أقطعه الملك بلبيس حتى قبل أن يستولي عليها(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٠٣). لكن طمع عموري، وفقا لرواية الصوري ، ووقوعه تحت إغراء شاور بالمال جعله يتلكأ في حملته العسكرية

ISSN. 1815-8854

لاحتلال القاهرة ، فقد قطع مسافة يوم واحد ، بعد احتلاله بلبيس في عشرة أيام ، ويوضح هذا الأمر بقوله : " وقال الواقفون على بواطن الأمور ، العارفون بما وراء أفعال الملك هذه أنه تلكأ في الهجوم عن قصد حتى تتوفر للسلطان (شاور) فسحة طويلة من الوقت فيقدم المال الذي يحمل العسكر على الانسحاب ، أي أن الهدف الذي يسعى اليه الملك هو أن ينتز المال من السلطان ، وقال هؤلاء الناس أنه كان يفضل أن يأخذ رشوةً كبيرةً فينسحب بدلاً من أن يدع هذه المدينة نهباً لعصابات قومه كما حدث في بلبيس"(الصوري، ١٩٩٢)، ج٤، ص ١٠٥) ولعل أساس هذا الهجوم على عموري هي العواقب الوخيمة التي جرها طمع عموري عليه وعلى الصليبيين ، فتأخره أمام أسوار القاهرة وعدم مبادرته باحتلالها كان نقطة تحول في تاريخ المنطقة بمجمله ، إذ أتاح هذا التأخير لنور الدين أن يرسل شيركوه على رأس قوة من جديد لنجدة مصر ، بعد التماس الخليفة الفاطمي العاضد (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦١-١١٧١م) ، إياه بذلك (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٨ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٠). باذلاً له ثلث خراج البلاد وأن يقيم عنده أسد الدين شيركوه في عسكره وله اقطاعاً خارجاً عن الثلث لنور الدين (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٠ ؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧ ، ص ١٧٦). ومن الواضح أن نور الدين لم يكن بحاجة إلى من يحثه لأن استيلاء الصليبيين على مصر يعرض الجهة الإسلامية إلى خطر كبير ، نلمس هذا جلياً من خلال ما صرح به نور الدين قائلاً : " إننا إذا أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره." (ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٥٩-١٦٠). لذلك نلاحظ أن استعدادات نور الدين في هذه الحملة أكثر بكثير مما سبق ، إذ خصها بستة آلاف فارس ونفقتهم مئتي ألف دينار (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٠ ؛ جب ، ١٩٩٦، ص ١٥٤)، كما أعطى لكل فارس عشرين دينار معونة ، وحرص على أن يصحب شيركوه معه صلاح الدين (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٠ ؛ جب، ١٩٩٦م ، ص ١٥٤). ويبدو أن صلاح الدين أصبح قائداً لا يمكن الاستغناء عنه ، لاسيما بعدما بدر منه من شجاعة في موقعة البابين وحصار الإسكندرية ، وعلى أي حال توجهت القوات الزنكية إلى مصر في سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) (أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٠-٥١ ؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧ ، ص ١٧٦) . ولما علم الملك عموري بوصول قوات شيركوه إلى مصر فوجئ بذلك ، وقام فوراً : " بتقويض خيامه ... وعاد إلى بلبيس ، حتى تجهز منها بما يستلزمه الزحف من مواد ضرورية ، ثم عهد بحماية المدينة إلى قوة من الخيالة والفرسان " (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٠٩-١١٠)، ويبدو أن الملك الصليبي عموري شعر بعد عودته إلى بلبيس أن عليه أن يتخذ قراراً تجاه أكثر من احتمال ، وهو ما لخصه وليم الصوري بما يلي :-

١- أن الضرر سيكون كبيراً عليه ، لو أنه تريث أكثر مما حصل في مواجهة أسد الدين شيركوه(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١١٠).

ISSN. 1815-8854

٢- إن الاشتباك في القتال معه ليس بمأمون العاقبة لأن الوزير شاور لم يظهر منه ما يفيد التزامه بالاتفاق السابق مع عموري وخصوصاً أنه هو من أرسل إلى نور الدين يسأله النجدة كما ذكر الصوري(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٠٥-١١٠).

أمام هذان الاحتمالين قرر عموري أن مصلحته في الابتعاد عن مواجهة شيركوه ، والرحيل عن مصر ، فغادر هو وجيشه مصر باتجاه المملكة (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١١١)، تاركين القوات الزنكية تدخل القاهرة وسط مظاهر الفرح والسرور من الأهالي كما حفلوا بترحاب الخليفة الفاطمي العاضد الذي أجرى للعساكر الجرايات الكثيرة والاقامة الوافرة (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٤٠ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٥٥).

وبهذا انتهت حملة عموري هذه على مصر بفشل ذريع ، إذ أنها لم تقتصر على زوال نفوذه الذي كان قد حققه في حملته السابقة فحسب ، بل نجم عنه وقوع مصر تحت النفوذ الزنكي ، وأدى إلى مقتل حليفه الوزير شاور في سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) ، وإلى تولي قائد نور الدين أسد الدين شيركوه الوزارة الفاطمية ، ثم تولى صلاح الدين الأيوبي (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٤٢-٣٤٤ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج ، ص ٦٨ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ج١ ، ص ١٦١-١٦٣ ؛ الأزدي ، ١٩٧٢ ، ص ١١٦)، لها بعد وفاة عمه شيركوه ، أربكت هذه النتائج الموقف الصليبي على حد جعل الصوري يقول : " إنني حيثما قلبت ناظري ، لم أر إلا ما يدعو للفزع والاضطراب ، فلم يعد البحر كما كان من قبل معبراً آمناً ، وأصبحت جميع الأراضي حولنا تخضع للعدو ، وشرعت الممالك المجاورة لنا تتأهب للقضاء علينا ، ومحونا من الوجود "(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١١٣). وكما عبر الصوري عن شعوره ، عندما سيطر نور الدين على مصر قائلاً : " إن خضوع مصر للترك كان ضربة أليمة وجهت إلينا ، وإن موقفنا أصبح من الناحية العلمية أسوأ مما كان عليه ، فقد استطاع نور الدين أشد خصومنا لدادةً لنا – بخروجه من مصر بأسطوله الضخم أن يحاصرنا بصورة فعلية ، وأصبح في قدرته حصار جميع المدن الساحلية براً وبحراً بجيشه ، وزاد من خوفنا أنه أصبح قادراً على قطع الطريق على الحجاج ومنعهم من المجيئ إلينا ، بل وألاّ يأذن لهم بالسير بتاتاً(الصوري، ١٩٩٢، ج٤، ١١٥).

وفي سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) ، اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبيين حول مصر أكثر حدةً وعنف ، عندما قام الملك عموري بتوجيه حملة مشتركة مع الدولة البيزنطية عليها ، استناداً إلى اتفاقية سبق أن وقعها موفد الملك عموري إلى بيزنطة وهو المؤرخ وليم الصوري ، غير أن هذه الحملة التي توجهت براً وبحراً نحو مدينة دمياط ، التي تحصنت فيها عساكر صلاح الدين الأيوبي وذخائره ومعداته ، فضربوا حولها الحصار الذي استمر خمسون يوماً ، فما كان من نور الدين محمود بعد أن وصلته الأخبار إلا أن عبأ عساكره وأغار على مناطقهم فرحلوا وما ظفروا بها (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١١٨-١٢٤؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٤٣-١٤٤). كما قاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم (أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣٩-١٤٠). وبهذا بائت حملتهم بالفشل بعد أن واجهت مقاومة كبيرة من أهل المدينة المحاصرة ومن القوات الزنكية (أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ١٣٩-١٤٠ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٢٠-١٢٦).

ISSN. 1815-8854

وهكذا أفرزت الصراعات بين المسلمين والصليبيين حول الاستحواذ على مصر ، قيادةً قويةً ومناوئةً في مصر تتمثل في صلاح الدين الأيوبي ، وإلى قيادة بلاد الشام ، ويتزعمها نور الدين ، ولقد عمل كل من نور الدين وقائده صلاح الدين من أجل تحقيق هدفهم الوحدوي ، ليكون أساساً لهدفه الاستراتيجي الكبير ، وهو تحرير بيت المقدس وطرد الصليبيين من الديار الإسلامية وفي سبيل ذلك أرسل نور الدين في سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) ، إلى صلاح الدين يأمره بالمسير إلى قلعة الكرك لمحاصرتها، فسار صلاح الدين تنفيذاً لهذا الأمر فحاصر قلعة الشوبك الواقعة إلى الجنوب من الكرك (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٦٧ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ جب ، ١٩٩٦ ، ص ١٢١). لكن صلاح الدين أخفق في مساعدة نور الدين من خلال الحملة على حصن الشوبك ، بسبب اضطراب الأوضاع في مصر ، على أثره عاد صلاح الدين لضبط الأمور فيها ، بعد أن أرسل إلى نور الدين يعلمه بذلك على أمل اللقاء معه في العام القادم، (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٥٨ ؛ ابن قاضي شهبة ، ١٩٩٧ ، ص ٢١٢ ؛ جب ، ١٩٩٦، ص ١٢١).

وتنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في العام السابق خرج صلاح الدين في سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) ، للقاء نور الدين ، إلا أنه تلقى رسالة من مصر بأن والده نجم الدين يحتضر، (ابن شداد ، ١٩٩٤ ، ص ٨٦-٨٧ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٧). فأرسل إلى نور الدين يخبره بالأمر ، وأسرع بالرجوع إلى مصر ، خشية حدوث الفتنة واستغلال أنصار الفاطميين الوضع ويستولوا على البلاد (ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٥٨-١٥٩ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ؛ جب ، ١٩٩٦ ، ص ١٢١). ويبدو أن نور الدين قد أيد صلاح الدين في كلا المرتين لأنه مدركاً لحجم الكارثة التي تحل في حالة ضياع مصر من يده ، وما تسببه من عرقلة للوحدة الإسلامية ، ويتمثل ذلك بماا صرح به نور الدين قائلا: إن حفظ مصر اهم عندنا من غيره(ابن الاثير، ١٩٩٧، ص ٣٨٥). كما تشير الدلائل التاريخية إلى سعي نور الدين لدعم مركز صلاح الدين في مصر لمواجهة ما يتهدده من أخطار ، ويمكن اعتبار إرسال صلاح الدين أخاه الأكبر تورانشاه إلى اليمن بإذن من نور الدين يدخل في إطار هذا العمل (ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٧). والحق أن ما قام به صلاح الدين لم يكن ليخدم غرضاً شخصياً ضيقاً بل أن سياسته كانت مستوحاة من التجارب التي تعرض لها منها ما حدث من التسابق بين الصليبيين والبيزنطيين للاستيلاء على دمياط ، كما مر ذكره وما وقف عليه من أمر المفاوضات بين الملك عموري والامبراطور مانويل لإعداد حملة على مصر ويشير رنسيمان إلى هذه المفاوضات قائلاً : " فانعقدت بينهما وتم التوقيع عليها ، غير أن شروطها لم يتم تسجيلها ، ويبدو أن الملك اعترف في صورة غامضة بسيادة الامبراطور على المسيحيين الوطنيين وأن الإمبراطور مانويل وعد ببذل مساعدة بحرية ومالية فتقرر وضع خطة لتوجيه حملة أخرى إلى مصر(رنسيمان، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٦٣٢). كل هذه الأحداث باتت سبباً مقنعاً بأن مصر أصبحت أكثر البلاد تعرضاً للخطر الصليبي ، وعلى أي حال فان ما سعى إليه نور الدين لم يتحقق في حياته هو تحرير بيت المقدس من دنس الصليبيين إذ توفاه الله بعد فترة مرض قصيرة يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) ، وهو في دمشق (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن الأثير ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٣ ؛ ابن العديم ، ١٩٩٦ ، ص ٣٥٨ ؛

ISSN. 1815-8854

أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٣٠٩). ولقد انصف وليم الصوري نور الدين محمود عند وفاته قائلاً : " مات نور الدين ... وقد وافاه الموت بعد حكم أمتد ثمان وعشرين سنة ، وكان أميراً عادلاً شجاعاً فطناً ، وهو من الأتقياء الورعين حسب مفهوم بني جنسه "(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٥٩-١٦٠). وبعد وفاة نور الدين استغل الملك عموري الوضع المضطرب الذي آلت إليه الأتابكية الزنكية ، فقد سارع الملك الصليبي بعد ذلك بتوجيه حملة للسيطرة على مدينة بانياس (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٩٨ ؛ الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٦٠) وأشار الصوري إلى النجاح الذي حققه الملك عموري في خطوته ، فقد أجبر الزنكيين على الدخول في مفاوضات لفك الحصار عن بانياس ، كما ذكر أن الذي راسله في هذا هو أرملة نور الدين محمود ، وطرحت فكرة عقد هدنة مؤقتة بين الطرفين ، يتعهد الزنكيون بموجبها بدفع قدر كبير من المال له ، إلا أن الملك عموري لم يستجب لهذا الطرح ، واستمر في حصاره للمدينة ، إلا أنه وبعد انقضاء خمس عشر يوماً عليه ، وافق على المقترحات ، حيث تم دفع المبلغ المقرر، وأطلاق سراح عشرين من أسرى الصليبيين الذين كانوا محتجزين لدى الزنكيين(الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٦٠). إن ما أورده الصوري يتفق في مجمله مع المصادر العربية ، إلا أن الأخيرة اختلفت في ذكر بعض الجزئيات ، ومنها أن الذي قام بمراسلة الملك عموري هو شمس الدين مُحَمَّد بن المقدم وليس أرملة نور الدين (ابن الاثير، ١٩٩٧،ج٩ ، ص ٣٩٨ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ، ج٢ ، ص ٣٢٢). وذكر الصوري بأن الملك عموري توفي أثناء الرجوع من حملته على بانياس في بيت المقدس في الحادي عشر من تموز من سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) (الصوري ، ١٩٩٢ ، ج٤ ، ص ١٦٠-١٦١).

وفي النهاية يمكن القول أن محاولات الملك عموري في تنفيذ سياسته في تحقيق المشروع الصليبي الداعي إلى غزو مصر واتخاذها أساساً لتثبيت الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وتمكينه من التوسع ومواجهة الضغوط الزنكية انتهى بالفشل وكانت هذه مقدمة نهاية المملكة الصليبية في بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) على يد صلاح الدين الأيوبي ، مما لا يقع الحديث عنه في إطار هذه الدراسة.

الخاتمة

دخل المسلمون بقيادة نور الدين محمود بن زنكي حاكم الشام والجزيرة والملك الصليبي عموري في نزاع عنيف للاستيلاء على مصر. وقد استغرق الصراع قرابة خمس سنوات، تكلل اخيرا بنجاح المسلمين بانقاذ مصر من الوقوع بأيدي الصليبيين.

حظي هذا الصراع المتمثل بثلاث حملات قادتها قوات نور الدين زنكي بهدف انقاذ مصر من الوقوع بأيدي الصليبيين بمراقبة مباشرة من قبل مؤرخين معاصرين وعلى مقربة وثيقة من الاحداث وهما عماد الدين الاصفهاني كاتب انشاء نور الدين ووليم الصوري صديق الملك الصليبي ومربي ابنه.

يضاف الى هذه الروايات ما قدمه مؤرخون لاحقون مثل ابن ابي طي الحموي وعز الدين بن الاثير. وتميز كل مؤرخ باغنائه الحوادث التاريخية بتفاصيل انفرد بها عن بقية المؤرخين وواخرى اتفق بها معهم.

ISSN. 1815-8854

سجلت المصادر وعي كل من نور الدين وعموري مد خطورة المواجهة بين الطرفين وما سيترتب من اثر مدمر على طرف في حال استولى الطرف الاخر على مصر. فكانت مواجهة عنيفة تدخل فيها وزراء الفاطميون مثل ضرغام وبعده شاور.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

١- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري،(١٩٦٣) ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة

٢- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري(١٩٩٧) الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ،

٣- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم.(١٩٨١) وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر.

٤- الذهبي ، شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز.(١٩٩٣) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط٢ ، بيروت ، دار الكتاب العربي.

٥- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل.(١٩٩٧) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم الزيبق ، بيروت ، مؤسسة الرسالة.

٦- ابن شداد ، يوسف بن رافع بن تميم بهاء الدين.(١٩٩٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، ط٢ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي.

٧- الصوري ، وليم(١٩٩٢) تاريخ الحروب الصليبية والمسمى الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ترجمة : حسن حبشي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨- ابن ظافر الأزدي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور١٩٧٢ أخبار الدولة المنقطعة ، تحقيق : أندريه فريه ، القاهرة ، دار الكندي للنشر .

٩- ابن العديم ، كمال الدين عمر أحمد بن أبي جرادة، (١٩٩٦) زبدة حلب في تاريخ حلب ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

١٠- ابن قاضي شهبه ، أحمد بن مُحَمَّد بن عمر.(١٩٩٧)، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد.

١١- الكتبي ، مُحَمَّد بن شاكر بن أحمد، (١٩٧٤)، فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر.

ISSN. 1815-8854

١٢- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(١٩٩٦) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفاء ، تحقيق : جمال الدين الشيال ومُحَمَّد حلمي أحمد ، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٣- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(١٩٩٧)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،

ابن منقذ ، أبو مظفر أسامة بن مرشد(د ت)، الاعتبار ، تحقيق وتحرير : فيليب حتي ، القاهرة ، مكتبة الثقافية الدينية .

١٤- ابن واصل ، جمال الدين مُحَمَّد بن سالم(١٩٥٧)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال وحسنين مُحَمَّد ربيع ، القاهرة ، دار الكتب والوثائق القومية .

١٥- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله (١٩٩٥)، معجم البلدان ، ط٢ ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٥م.

١٦- اليمني ، نجم الدين أبو مُحَمَّد عمارة.(١٩٩١) النكت العصرية في أخبار الوزراء الفاطمية ، ط٢ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي.

ثانيا: المراجع الحديثة

١٧- جب ، هاملتون.(١٩٩٦)، تاريخ دمشق ، صلاح الدين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، ترجمة : يوسف أيبش ، ط٢ ، بيروت ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.

١٨- رنسيمان ، ستيفن(١٩٩٧)، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العريني ، بيروت ، دار الثقافة.

١٩- سيتون ، كنيث(٢٠٠٤)، تاريخ الحروب الصليبية ، فصول مختارة ، ترجمة : سعيد البيشاوي ومُحَمَّد مؤنس عوض ، رام الله ، بيت المقدس للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤م.

٢٠- المطوي ، مُحَمَّد العروسي(١٩٨٢)، الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، ط٢ ، تونس ، دار الغرب الإسلامي.

١- مؤنس ، حسين، (١٩٥٩)، نور الدين سيرة مجاهد صادق ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر.

الرسائل والأطاريح الجامعية

٢١- الختاتنة ، تغريد عبد الحميد جبر(٢٠٠٢) السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول كما أرخ لها وليم الصوري مقارنة بالمصادر الأخرى (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٤م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة مؤتة ،

٢٢- الزوبعي ، محمود فياض حمادي.(٢٠٠٣) المقاومة العربية الإسلامية للغزو الصليبي حتى معركة حطين ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد.